اللاسامية العصرية شعلة أولمبية

محمد شاهين *

عقد مؤتمر عزرا باوند (وهو شاعر أمريكي مهم في حركة الشعر العالمي الحديث) في شمال إيطاليا في الحصن الذي قضى فيه سنواته الأخيرة بعد أن خرج من الأسر الذي دام ما يقرب من اثني عشر عاما عندما ألقى الحلفاء القبض عليه في حزيران عام 1944م، وأخذوه أسيرا بالقرب من بيزا في إيطاليا، واتهموه بالخيانة العظمى؛ لأنَّه كان معارضا لسياسة بلده أمريكا في الحرب العالمية الثانية إذ استمر يقدم أحاديثا في الإذاعة على مدى بضع سنوات، يدين فيها سياسة أمريكا ومن هم وراء هذه السياسة من أصحاب رؤوس الأموال والبنوك، الذي كان لهم الدور الرئيسي في تزويد الحرب بالوقود الذي تحتاجه. عمل محبو باوند وعلى رأسهم اليوت على تحويل تهمة الخيانة إلى تهمة الجنون من أجل تخفيف العقاب، وبهذا انتهى باوند في مصحة سينت اليزابيت في واشنطن، وقدم إلى المحكمة على أنه مختل عقليا، واستمرت محاكمته على أنه كذلك إلى أن خرج من الأسر بمساعدة أهل الخير أمثال الشاعر روبرت فرست في حزيران عام 1958، وقصة خروجه من الأسر قصة طويلة ومعقده.

يعقد المؤتمر مرة كل عامين، كل مرة في مكان، في جامعة في أمريكا أو بريطانيا أو أوروبا. وهذه هي المرة الثانية التي يعقد فيها المؤتمر في هذا المكان الذي تملكه ابنته ماري من شريكة حياته الإيطالية أولغا. وتستقبل ماري المؤتمر بحماس منقطع النظير، وتحاول الاستماع إلى الأبحاث التي يقدمها المؤتمرون على مدى ثلاثة أيام دون كلل أو ملل، وهي في الثالثة والسبعين من العمر.

لست بصدد الحديث عن تفاصيل المؤتمر ولا عن كل ما جرى فيه تحت عنوان المؤثرات التي تأثر بها شعر باوند والتي أثرت في شعر الآخرين.

يتحدث المؤتمرون عادة عن مساهمات باوند الريادية في عالم الأدب والفكر والحضارة، وكيف أنه كان سباقا في التجديد وفي تطوير الموروث، وتعتبر مجموعة أشعاره التي تعرف "بالأناشيد" ملحمة القرن العشرين التي لم يسبق لشاعر أو أديب أن قام بإنجاز شبيه بذلك.

خاتمة المطاف في المؤتمر جلسة خصصها منظم المؤتمر للناقد المعروف ديفد مودي، الأستاذ بجامعة يورك في بريطانيا، وهو حجة نقدية عن باوند وأليوت. عنوان بحثه الذي استغرق زهاء ساعة، أطول جلسة في المؤتمر: "اللاسامية عند باوند في الثلاثينات: صياغة جديدة " وهو موضوع يتجنب المؤتمرون الحديث عنه في المؤتمرات حيث يتركز الحديث عن الشاعر الأديب، الناقد وليس عن السياسي باوند الذي دخل معترك الحياة

السياسية خلال النصف الأول من هذا القرن. رغم تجنب الحديث عن هذا الموضوع في المؤتمرات السابقة على مدى ربع قرن إلا أن العديد من النقاد والكتاب انبروا للكتابة عن العراك الذي دخله باوند في السياسة خارج جلسات المؤتمر. وموجز القول إن الحديث عن باوند والسياسة سرعان ما يصبح موضوعا ساخنا يخلق الإرباك والإحراج والانقسام الحاد، حيث يبرز السؤال المعروف: كيف أن شاعرا عبقريا يزج بنفسه في الفاشية، ويتطوع للدفاع عنها بكل ما أوتي من فصاحة الشعر وبلاغة النثر، وعلى مدى سنوات طويلة؟ ثم إن باوند نفسه قال الشيء الأكثر عما يعرف فيما بعد باللاسامية، وقال في الموضوع أكثر ممَّا قال مالك في الخمر، أي أن انخراطه في هذا الأمر ليس خافيا على أحد، وليس بحاجة إلى إثبات أو جدل من نوع أو آخر. وقد تأثرت شهرة باوند الأدبية في مدة طويلة وخصوصا في السنوات التي تلت الحرب العالمية الثانية حتى نهاية الخمسينات بل وبداية الستينات بسبب هذه القضية إلى أن تبين لجمهور غفير من صفوة الباحثين والدارسين وأساتذة الجامعات في بريطانيا وأمريكا وأوروبا أنه لا يمكن للعالم أن يتجاهل هذه الضحية الفذة، رغم كل ما أحاط بها من ظروف ينظر إليها البعض على أنها تفسد الصورة الإيجابية للفن. ويبدو أن الغالبية العظمى انتهجت طريقا وسطا أصبح جل الاهتمام فيه هو التركيز على فن وأدب وفكر باوند دون نبش الموضوع، مؤثرين الإبقاء على ملف السياسة مغلقا. وهكذا فقد حضرت المؤتمر تلو الآخر منذ منتصف السبعينات دون أن أسمع بحثا عن الموضوع، أو فيه محافظة على عبقرية باوند الشعرية والابتعاد بها عن السياسة.

وهكذا عندما جلس مودي على الطاولة ليقدِّم بحثه في بهو القلعة الفسيح الذي يطل على امتداد جبال الآلب اجتمع حشد المؤتمرين الذي بلغ سبعين مشاركا، وكلهم آذانٍ صاغية إلى أول بحث يلقى عن اللاسامية عند باوند. مرة أخرى لا أريد أن أتعرض لكُل ما جاء في بحث مودي، فالمقام هنا لا يستدعي حضور المقال كله حيث إنني سأكتفي بالإشارة إلى الانطباع الذي يتركه الموقف على مستمع عربي حضر إلى المؤتمر في مثل هذا الموسم من الهجرة إلى الشمال.

بدأ مودي حديثه بالقول أن باوند اللاسامي ليس باوند الذي يعنيه أو يهمه، أو الذي يتعرف عليه. ثم أردف قائلا لقد كان باوند لا ساميا وغير لا سامي معا، واختتم حديثه قائلا:س إن باوند شخصية تراجيدية بالمعنى اليوناني للتراجيديا، حيث يكون البطل عظيما رغم ما فيه من ضعف إنساني يُودي بحياته في النهاية، أي: أن بطولته تظل ناقصة ما دامت اللاسامية عالقة بها.

أنهى مودي حديثه، صفق له الجميع، فهو دائما في طليعة المتحدثين في كل مؤتمر عن باوند. خيم الوجوم على الجميع. لم يسأل أحد أي سؤال. وقفت وقلت لصديقي مودي إن هناك أدلة كثيرة على الموضوع لم يتعرض لها (وأنا أعلم أنه على علم بها وبغيرها، ولكن الموقف بالنسبة لي استدعى هذه الملاحظة) ورحت أسوق له الأمثلة: أحدها رسالة غير منشورة من باوند يقول فيها: إن الصهاينة وروزفلتهم (نسبة إلى روزفلت) يتحملون

الوزر الأكبر في إشعال نار الحرب العالمية الثانية، واتبعت ملاحظاتي إن باوند كان من بين الرواد الذين ميزوا بين اليهودية والصهيونية. ثم أعقبت ملاحظتي بمثل آخر في رسالة أخرى أيضا غير منشورة علق فيها باوند على ظهور اسرائيل عام 1949، حيث قال: إنَّهُ أصبح لدى العالم فاتيكان جديد، وحبذا لو نشأ هذا الفاتيكان الجديد في روما بدلا من تل أبيب. خيَّم الوجوم مرة أخرى. لا- أحد يريد أن يقتحم حقل الألغام. وبعد أقل من نصف دقيقة هبت العاصفة عندما وقفت ماري توجه اللوم بأعلى صوتها، وهي تنفجر بالبكاء إلى مودي، بل وإلى الجميع قائلة: ليس هذا هو باوند فهو الرجل الذي تطوع للدفاع عن قضايا الإنسان، وعلينا أن نذكره في علاقته مع هذه القضايا، وألا نجعل توافه الأمور تشتت انتباهنا... إلى آخر ذلك من خطبة عصماء طويلة...

بيت القصيد هنا (وأقول هذا قبل أن يضل القارئ الطريق في متاهات هذا الموضوع) هو ليس باوند الشاعر أو اللاسامي، وليس مودي الناقد الألمعي، وليست ماري التي لا يحسدها أحد على التركة الثقيلة التي ورثتها عن شخصية أب جدلية ترهق جدليتها أقوى وريث أو وريثة، وفي النهاية ليست موضوع اللاسامية، وإنما بيت القصيدة هنا هو أخلاقيات الغرب الفضفاضة التي تتسع لكل شيء وتحاكي كل موضوع حسب ما تريد، أو حسب ما يتفق هواها أو حسب الظرف. فهي كما يقول المثل: "كبرها تكبر وصغرها تصغر"، حسب الموقف والطلب. لم أتوقع من صديقي مودي الذي قرأت له نقدا ذكيا عن باوند وعن أليوت أن يضع نفسه في هذا الموقف من التناقض. فيقول: إن باوند مع اللاسامية وضد اللاسامية في آن واحد، وإنه شاعر فذ مع أنه مع اللاسامية، هذا يذكرني بمطلع قصيدة لرامبو يقول فيها: "لا أحد هنا مع أَنَّهُ يوجد شخص هنا".

ولكن رامبو كان يعالج موقفا شعريا لغويا لا- سياسيا فنيا. يؤمن مودي أن باوند كان شاعرا عبقريا، ولكنه يخشى أن يحتفظ بهذا الموقف دون أن يحاول تبرير اللاسامية عند باوند؛ لأن اللاسامية وقصتها الطويلة العريضة أصبحت من كبائر المحرمات في الحضارة الأوروبية الحديثة بعد الحرب العالمية الثانية. المهم أن مودي استخدم كل ما يملك من ذكاء في تبرير موقف اعتقد أَنَّهُ بحاجة إلى تبرير، لولا- أن مودي ينتمي إلى تراث غربي تفوق على أمم العالم في التبرير، حيث يضع أحيانا كل مقومات فكره في التاريخ والفلسفة والدين والعلم وما إلى ذلك في خدمة التبرير، وبطريقة ذكية تصبح حلية خادعة تحقق هدفها دون أن تفصح عن أسلوبها الذكي.

خلوت بمودي في ركن من أركان البهو وقلت له على مسمع من ماري: المسألة بسيطة، ولا- أعتقد أنها بحاجة إلى كل ما أحطت نفسك به من عناء. كما ذكرت أنت وكما يعلم الناس اشتغل باوند في الثلاثينات من هذا القرن بالاقتصاد آملا أن يكون أداة أقوى من الشعر في التأثير على الناس، خصوصا عندما كان الجو ينبئ بحرب عالمية جديدة، وخلص إلى أن أصحاب رؤوس الأموال الكبيرة من أصحاب البنوك في أمريكا وأوروبا هم الذين كان بيدهم التحكم في إشعال فتيل حرب عالمية جديدة، وحاول مرتين أن يلتقي برئيس الولايات المتحدة ليقنعه بأن لا تدخل أمريكا الحرب، آملا في أن يمنع عدم تدخلها

إشعال الفتيل. ولو كان روشكايلد من الأسكيما لما تحول عن مهاجمته، أي أن مهاجمة باوند لروشكايلد وبني ذويه لم تكن فعلا على أساس عرقي، بل شاءت الظروف أن يكون هؤلاء الناس من أمثاله من أكبر المتنفذين في السيطرة على رؤوس الأموال. باختصار المسألة كما يقولون ليست بحاجة إلى الذهاب إلى القاضي.

وبعد، فقد دفعني إلى تسجيل هذه الواقعة ما قرأته في الحياة من ترجمة مسيئة (سامح الله صديقي الذي قام بالترجمة) لمقالة إدوارد سعيد "أسس للتعايش" التي ظهر في الحياة، وتعليق الدكتور محمد جابر الأنصاري عليها الذي ظهر في الحياة أيضا، وفي صحف عربية أخرى في الوطن العربي في شهر نوفمبر 1997، حيث اتهم الدكتور الأنصاري إدوارد سعيد أنه تراجع عن موقفه الصلب تجاه الغرب.

الأولوية الرئيسة هي أن الغرب يلبس قناعا يوهمنا أنه الوجه، ونظل نتيه في هذا القناع إلى ما شاء الله هناك، قضايا في الغرب يظل يعتبرها مصدر رعب لا يساوم أو يحاور عليها حتى لو نظرنا إليها عن غير ذلك. من هذه القضايا اللاسامية والنازية والفاشية التي هي في اعتقاد الغرب علامات بارزة في تاريخه الحديث، ويعالجها لسوء الحظ بطرق تخفى علينا وعلى غيرنا.

ما أريد أن أقوله هنا: إن هناك بعبعا في لا- شعور الغرب خلفته الحربان العالميتان وخصوصا الثانية. وإنه لمن سوء الطالع بالنسبة لنا كعرب أن أوروبا في الحرب الثانية ارتكبت ما ارتكبت من مذابح ضد اليهود وغير اليهود (البولنديين مثلا وغيرهم)، كانت نتيجتها أن عقدة ذنب جديدة بالإضافة إلى العقدة الأصيلة التي تسمى في الكاثوليكية بالذنب المحتوم (original sin)، أي أن المذابح أو ما سماها مترجم جريدة الحياة "محرقة اليهود" بدلا من تسميتها على سبيل المثال "مذابح النازية" أو مذابح الأوروبيين اليهود. هذه المذابح خلفت عند الغرب الأوروبي (وأمريكا) نوعا من الشعور بالذنب، وهذا التعاطف أصبح غير قابل للنقاش. وهذا ما يقوله إدوارد سعيد في مقالته "أسس للتعايش".

في عام 1995 ظهر من مطبعة جامعة كيمبردج كتاب أليوت، اللاسامية والشكل الأدبي لمؤلفة أنثوني جولياس. استقبل الكتاب بحفاوة بالغة من قبل عدد هائل من المراجعين في مختلف المجالات والملاحق الأدبية، وطبعت طبعة رخيصة من نفس المطبعة كدليل على رواجه، حصلت على الكتاب بعد ظهوره بعامين، ولم أبذل جهدا في الحصول عليه من قبل، إذ أن الموضوع برمته لا يستهويني كثيرا. في ذلك الصيف التقيت بالأستاذ الذي قام بالإشراف على دراسته في جامعة كيمبردج، وقد كان أستاذا لي في نفس الجامعة. سألته عن الكتاب الذي أثار كل هذه الضجة على مدى عامين أو أكثر. أجابني الأستاذ جون بير - وهو من أقدم أساتذة كلية الأدب الإنجليزي بالجامعة- أنه لم يقرأ الكتاب؛ لأن مثل تلك الكتب لا- تثير في نفسه حتى الفضول. ولكنه روى لي بحماس كيف أن المؤلف وهو من طلابه استشاره في مكالمة هاتفية من لندن، استشاره قبل ظهور الكتاب تقريبا في الكتابة عن موضوع اللاسامية دون تحديد، ولم يعاود الاتصال به بعد ذلك. وعندما ظهر الكتاب

قام محرر صحيفة اللندن نيوز صحيفة مسائية من صحف الإثارة بمهاتفة الأستاذ تسأل عن سمعة المؤلف وأخلاقياته دون أن تقدم سببا للسؤال، وبالطبع دون أن يعرف الأستاذ هدف السائل من السؤال. وأردف الأستاذ قائلا: إنه من الجدير بالذكر أن المؤلف أنثوني جولياس هو محامي الأميرة الراحلة ديانا.

وفي العادة تقتطف دور النشر قليلا من جميل القول الذي يرد في عرض الكتاب في طبعته الأولى كثبت مفيد على غلاف الطبعة التالية التي غالبا ما تكون طبعة أقل تكلفة. وفي حالة كتاب اللاسامية المذكور قام الناشر بنشر مقتطفات تمجد الكتاب احتلت ما يقرب من صفحتين بدلا من مقتطفات أشبه بعينات، كما يقتضي العرف. هذا مثلا مقتطف يظهر في الصفحة الأولى من الكتاب، ثم كاتالوج الناشر لشاعر معروف، وله سمعته في نقد الشعر وهو توم بولين الذي يقول: إن دراسة جولياس تشكل حدا فاصلا بين أليوت في الماضي والمستقبل، ولن يعود أليوت يتمتع بشهرته المعهودة بعد دراسة جولياس التي ستشكل حدا فاصلا بين مكانة مرموقة جعلته الدراسات الأدبية ماضيا يحتلها، وبين مستقبل مظلم أحالته دراسة جولياس إليها. ويتنبأ بولين أن دراسة جولياس هذه لأليوت ستشكل بداية لعملية طويلة في إعادة النظر فيما كتب عن أليوت من نقد في الماضي. والمقتطفات الأخرى التي جعلها الناشر ثبتا في الطبعة الجديدة لا تقل بلاغة في هجومها على أليوت ومحاولة النيل منه.

يقول جولياس في مقدمة كتابه: ليست اللاسامية مستوى واحدا. فبعضها يكسر الأضلاع اليهودية، والبعض الآخر يجرح الشعور اليهودي. بالنسبة لأليوت فإن لاسامتيه تقع بين الصنفين من اللاسامية. لقد كان أليوت مؤدبا مع اليهود الذي عرفهم وعرفوه، ولكنه كان مسيئا لمن عرفوه من خلال أعماله الأدبية.

باختصار الكتاب أشبه بمرافعة في محكمة استغل جولياس ذكاءه وتدريبه كمحام بارع في إخراج كتاب مثير أشبه بقضية مثيرة توكل في كسبها، وهو يعلم في قرارة نفسه الحقيقة، ولكن الحقيقة عند محامي الدفاع شيء وهو يعرضها على الملأ، والحقيقة المجردة شيء آخر يظل الفاصل بينهما مجالا رحبا للاستثمار والاصطياد في الماء العكر.

* * *

وبعد، فعندما قرأت برنامج مؤتمر باوند وعلمت أن بحث الأستاذ ديفد مودي هو عن لاسامية باوند، أيقنت على الفور امتداد تأثير كتاب جولياس، وأن ديفد مودي انضم إلى الركب طواعية أو كراهية، وَإلاَّ لماذا لم يتطرق إلى هذا الموضوع في دراساته التي تعتبر حجَّة عن أليوت؟

وهكذا تبدأ أصابع الاتهام بالتسلل إلى أكبر شاعر عرفه القرن العشرين، والذي كانت له أكبر مساهمة في تغيير مجرى الشعر والنقد، ليس فقط في العالم الأنجلوسكسوني، بل في بقاع شتى من هذه المعمورة. هل سيفقد أليوت بعض مصداقيته الفنية في المستقبل كما يتنبأ

جولياس، ويبدأ حتى المعجبون به أمثال مودي بالنظر إليه على أنه يقترب في صورته من البطل التراجيدي الذي يشوب الضعف حياته المأساوية، وبهذا يلحق بقائمة الشرف أو اللاشرف التي أصبح باوند يتصدرها مثلا؟

وفي ضوء هذا الوضع أليس من حقِّنا أن نتساءل ما إذا كانت هناك تسمية تطلق على الاضطهاد والقهر والتفرقة العنصرية، بأشكالها التي يمارسها أولئك الساميون ضد الساميين، من أبناء عمومتهم وفي وطنهم. أيهما أشدّ أذى: لا سامية الغرب التي كانت نتاج تاريخ أوروبي معقد في القرنين التاسع عشر والعشرين، تجاوزه الأوروبيون وأصبح تاريخا، أم ما يمكن أن نسميه لا سامية الساميين التي تمارس حاضرا حتى دون وجود ذلك المبرر، وهو الاختلاف العرقي.

إذا كان لابد من التعامل مع الغرب (وهو أمر يبدو أَنَّهُ مصيري)، فإن أبجدية هذا التعامل في التعرف على بوصلة تفكيره التي توجهه شرقا وغربا، وهي أبجدية معقدة لسوء الحظّ، ولا يمكن أن نفك شيفرتها ونحن غارقون في محليتنا، نمجد ذاتنا في المحافل المحلية، بعيدا عما يجري في العالم من تطورات.

****

*) أستاذ الأدب الإنجليزي والمقارن في الجامعة الأردنية ونائب رئيس جامعة مؤتة سابقا.